التعامل مع المطلق
الدين، وبيئة العمليات، وفن التصميم

المقدم بريسكو آر. هيرنانديز، درجة دكتوراه، احتياط الجيش الأمريكي

فضرب يشوع كل ارض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يبق شارداً بل حرم كل نسمة كما امر الرب اله إسرائيل.[1]

- يشوع 10:40

فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم.[2]

- القرآن الكريم، سورة التوبة الآية 5

يركز نقاشي هنا على البحث في آثار الدين على البيئة العملياتية وكيف يمكن للمخططين والقادة الاستعانة بمفهوم التصميم في اكتساب فهم وضعي أعمق للدور الذي يلعبه الدين في حفز وتبرير الأعمال في هذه البيئة.

التصميم والتعبئة الأيديولوجية

أدرك الجيش الأمريكي في الآونة الأخيرة الحاجة إلى فهم أوسع للبيئات المعقدة التي يعمل بها. ونتيجة لذلك، شرع الجيش في تأصيل نهج أكثر شمولاً يسعى إلى فهم الأوضاع على نحو أكبر من الاتساع والعمق بهدف العثور على حلول أعمق وأكثر دواماً للمشاكل المعقدة. وتسعى هذه العملية، التي تعرف بالتصميم، إلى الفهم عن طريق "تأطير" وضع ما في سياق ما. وعندما يتغير الوضع، يعمل المخططون على "إعادة تأطير" منظور ضد سياق متصل أكثر. ولا يدرج ممارسو التصميم العوامل العسكرية التقليدية، والسياسية، والبيئية فحسب في تحليلاتهم وتركيباتهم، وإنما أيضاً في مجالات أوسع للمسعى الإنساني مثل التاريخ، والثقافة، والمجتمع، والدين.[3]

إن أسلوب التصميم غير مفيد للمخططين الاستراتيجيين إلا إذا أدى إلى تسهيل فهم أكثر دقة للواقع وعزز من ثم إدخال تعديلات مفيدة في الخطط العملياتية. إن فهم دور الدين فهماً كاملاً في وضع أو حدث ما يتجاوز مجرد الفهم العقلاني البسيط. فهو يشمل قبول وإدراك وسائط أخرى للتصور، والتبادل، والخطاب الإنساني. وتشمل هذه الوسائط التعاطف الوجداني ومراعاة الآراء الأخرى - حتى تلك الآراء التي

المقدم بريسكو آر. هيرنانديز، احتياط الجيش الأمريكي، أستاذ مشارك في مديرية برامج الدرجات العليا بكلية قيادة الجيش الأمريكي والأركان العامة، فورت ليفينوورث، كانزاس. يحمل درجة الماجستير من جامعة إنديانا - بلومينغتون ودرجة الدكتوراه من جامعة ويسكونسون - ماديسون. نشر مقالات ومراجعات كتب عديدة في مجلات مهنية.

معركة لاس نافاس دي تولوسا. ألفونسو الخامس. كانتيغاس دغ سانتا ماريا (1260-1270).

T.I.I.1fol. مدريد. مكتبة ناسيونال.

الفردية وأبعادها الاجتماعية الكثيرة. وعلى وجه التحديد، يتعين على المخططين والمفكرين الضالعين في عملية التصميم أن يضعوا في اعتبارهم المبادئ الإرشادية عند تقييم الأثر المحتمل للدين على البيئة الاستراتيجية أو العملياتية.

الدين كوجود في بيئة العمليات

رغم استغلال العديد من الأديان في الترويج لأهداف سياسية، أو اجتماعية، أو روحية، فإنني أركز على الأديان التوحيدية الثلاثة - اليهودية، والمسيحية، والإسلام. فهذه الأديان تميل إلى أن تكون استبعادية على نحو صارم. وهي تخرج عن إطار المنطق، والأحكام، والتصورات، والبديهيات الغربية التقليدية.

يميل المخططون إلى مقاربة أعمالهم بأسلوب منطقي صارم، ومنهجي، ومرتبط بعملية ما، أفضل ما تعبر عنها كمثال عمليات رسمية يقوم بها العسكريون مثل عملية تخطيط العمليات المشتركة وعملية صنع القرار العسكري بالجيش الأمريكي. ويمكن لمقاربة تجاه عملية ما أن تكون جيدة جداً لأعمال مباشرة (مستقيمة) مثل عمليات قوة على أساس قوة. غير أن مثل هذه المقاربات للعملية لا تناسب العمل الذي يكون المجتمع محوره والتي تأتي تأثيرات القوة فيه في المرتبة الثانية، والثالثة (أو أكثر) وكثيراً ما تقوض النتائج المرغوب فيها. وإذا حاول المخططون فهم نظام بشري يلعب فيه الدين دوراً بارزاً، عليهم أن يتذكروا التعقيدات المتأصلة في الخبرة الدينية تصنف الناس إلى مؤمنين وغير مؤمنين. وتنزع هذه النظرة الثنائية للعالم إلى خلق ذهنية "نحن مقابل هم"، التي يمكن أن تعزز الظروف لتبرير استخدام القوة ضد أولئك الذين لم يقبلوا "الحقيقة".

نشأت اليهودية كديانة لمجموعة عرقية - القبائل الاثنتي عشرة لإسرائيل. وطوال تاريخها، احتفظت اليهودية بشخصيتها الاستبعادية. ولم تكن متحمسة بصورة خاصة لتحويل الآخرين. وركزت، بدلاً من ذلك، على الاحتفاظ بنقاء معتقداتها وسلامة تقاليدها ضد بيئة غالباً ما كانت عدائية.[4] وعلى النقيض من ذلك، كانت المسيحية ديانة تبشيرية منذ البداية.[5] وتطورت المسيحية كديانة منبثقة عن اليهودية، بتحويل الآخرين إلى رؤيتها. أولاً، اجتذبت متحولين من المجتمع اليهودي، ولكنها سرعان ما استقبلت غرباء. وبالمثل، فإن الإسلام كان ديانة تبشيرية منذ البداية.[6] ونما عن طريق تحويل

الوثنيين والمسيحيين إلى رؤيته. ويتسم الجانب التبشيري للمسيحية والإسلام بالأهمية لأنه يبين رغبة في تحويل «الآخر» غير المستنير إلى «الدين الواحد الحق». إن المؤمن لا يقدم على قبول «الآخر» كما هو ولكنه يسعى لتغييره من أجل صالح هذا الآخر. وإذا لم يتمكن «الآخر» من التحول، أظهر أتباع الديانات التبشيرية من الناحية التاريخية ميلا إلى نبذ، أو رفض، أو حتى محاولة تدمير هذا «الأخر».

صلابة الدين

إن تعاليم الدين ليست قابلة للبرهان العقلاني. وليست بشكل ملحوظ، قابلة للنقض العقلاني. فالمؤمنون يتمسكون بالبديهيات الدينية على أنها "حقيقية" من خلال عملية "الإيمان" - أي، التصرف السيكولوجي للقبول بأن بعض "الحقائق" المفترضة تتوافق مع الحقيقة على أساس "قفزة إيمانية". وليست هذه العملية عقلانية أو غير منطقية. ويمكن وصفها بأنها فوق العقلانية لأن وجوه معرفة المطلق- وتصور وسائله عبر الإيمان- تقع خارج نطاق العقل.[7] ومع ذلك، فإن للعقل دوراً في الدين. ومتى تم قبول «الحقائق»، يستخدم المؤمنون المنطق الاستقرائي والاستنباطي

يقترح بعض علماء في علم الانسان وجود مكون ديني في الطبيعة البشرية.

للتكهن، والتوسع، والإيضاح، والتعقيب، والتشكيك، والجزم بهذه المعتقدات. وللأسف، فإن العقل قد يعمل أيضاً كوسيلة لتبرير العنف والحرب باسم الإيمان الديني.

ويقترح بعض علماء في علم الانسان وجود مكون ديني في الطبيعة البشرية. ويشيرون إلى أن آلية داخلية متأصلة في الطبيعة البشرية قد تجبرنا على السعي لمعرفة تفسيرات للمتناقضات وللقيود البشرية في مواجهة اليأس من الموت. وتدفعنا هذه الآلية إلى السعي للحصول على إجابات للأسئلة المطلقة.[8] ويخلق التفسير الخارق لهذه الرغبات التجاوزية قيماً ونظرة إلى العالم تتفق مع معتقدات دينية معينة. والتعبير الشهير عن هذه الفكرة جاء على لسان أوغستين هيبو: «لقد صنعتنا لذاتك؛ وقلبنا لن يستريح إلا إذا استراح فيك».[9] إن الدين ظاهرة تكاد تكون عالمية. وهذا يعني أنه يرجح أن يصبح عاملاً، وأحياناً عاملاً بارزاً، في أوضاع تنطوي على أمن قومي.

يُعد الدين في المجتمع الأمريكي المعاصر، مسألة شخصية في أغلب الأحوال. فالأمريكيون يجدون من الصعوبة تصور الدين كعامل محفز في الحرب. ومع ذلك، عندما يُنظر إليه في المنظور التاريخي الطويل، فإن الأثر الاجتماعي للعقيدة كان هائلاً. وإذا درسنا أنماط تاريخ العالم، نجد من الواضح أن المجتمعات البشرية تشكلت تشكلاً عميقاً بالمعتقدات الدينية. فالحالة الراهنة القائمة في "الغرب" منذ القرن التاسع عشر، حيث سادت العلمانية وموقف اللامبالاة أو العداء تجاه المعتقد الديني، هي مسألة شاذة في التاريخ الإنساني ككل.

وحتى الماركسية بتقييمها التقليدي للدين "كأفيون للشعوب" فشلت في إطفاء الحاجة الإنسانية للإيمان. وبدلاً من ذلك، دشنت فترة مارس فيه الملايين نوعاً من الأيديولوجية المادية والإلحادية، وهو "دين" تميز بمعتقداته الخاصة، وأورثوذكسيته، وبدعه، وقديسينه. بل إن الرأسمالية، بتأكيدها على الاستهلاك المادي وافتقارها لأي مثل أعلى باستثناء السعي للربح والثراء، تعرض رضاء أقل تديناً من الاشتراكية. ورغم أن بعض المثقفين الغربيين قالوا قولتهم الشهيرة بأن "الله مات" وعقدوا النية على التعايش مع ما ينجم عن ذلك من قلق، فإن هذا لم يكن رد فعل عاماً على الوازع الديني الكلي الوجود.[10]

أهمية الدين

إن الدين مهم بالدرجة الأولى لأنه يعرض إجابات على التساؤلات الأساسية للوجود الإنساني. ومع ذلك، وفيما يتجاوز هذا الهدف الأخروي والغيبي، يوفر الدين الأعراف المعنوية والأخلاقية لكل من الفرد والحياة الجماعية. إضافة إلى ذلك، تدمج الكثير من الديانات أعرافاً اجتماعية في ممارساتها يتم استثمارها بسلطة معنوية كبيرة. وهذا الجانب من الدين هام من المنظور الجماعي. وقد يجادل كثيرون بأن وضع المرأة في الإسلام، وبدرجة أقل في اليهودية والمسيحية، ينبع من أعراف ثقافية اكتسبت قوة شبه دينية. غير أن المهم أيضاً أن آخرين يعتبرون هذه الأعراف جزءاً لا يتجزأ من صلب إيمانهم.

وعلاوة على المبادئ اللاهوتية، فإن معظم الأديان، وبالتأكيد الأديان التوحيدية الثلاثة، قامت ببلورة أو تبني نظرة معينة تجاه العالم. وتنطوي هذه النظرة على علم الكونيات، وعلم الانسان، وواحد أو أكثر من نماذج الحياة الاجتماعية. وتشكل هذه السياق الذي يمكن في إطاره أن تقبل التقاليد الدينية، أو ترفض، أو تعدّل الأفكار الجديدة. وقد أثبتت الاكتشافات في العلوم الفيزيائية والبيولوجية بشكل خاص أنها تمثل تحدياً للدين لأنها وفرت تفسيرات عقلانية للظاهرة الطبيعية والبشرية لا تعتمد على نظرة دينية تجاه العالم. ويصل النزاع بين النظرتين الدينية والعلمية للعالم مداه عندما تنطوي النظرة الدينية على تفسير أصولي للكتاب المقدس. مثال ذلك الجدل المتواصل بين نظرية التطور العلمية ونظريات بعض الجماعات المسيحية حول التصميم الذكي.[11]

الدين والحرب

عادة ما يُعتبر الدين قوة للسلام في عالم اليوم. غير أنه عمل عبر التاريخ، كمبرر للحرب أو حتى كسلاح للحرب. كيف إذن تتم "تعبئته" للحرب؟ لا بد من وجود ظروف معينة إذا أريد استخدام الدين كسلاح فعّال.

أولاً، لا بد من وجود مجتمع من المؤمنين الراغبين في القيام بعمل جماعي مبني على عقيدتهم المشتركة. فمثلاً، كان الناس إبّان العصور الوسطى، يعرّفون أنفسهم ليس بأصلهم العرقي وإنما أساساً بهويتهم الدينية - كمسيحيين، أو مسلمين، أو يهود.[12] ويوجد اليوم وضع مماثل في دول البلقان حيث تميز الشعوب من نفس الأصل العرقي، والتي تتحدث نفس اللغة وتتشاطر ثقافة واحدة تقريباً، أنفسها على أساس الدين. ونفس الشيء حقيقي في مناطق أخرى من العالم مثل إندونيسيا وأجزاء من أفريقيا. ورغم أن من الفضائل المعترف عموماً للإسلام أنه لا يميز على أساس الجنس أو العرق، فإن النظرة الإسلامية المتعصبة تجاه العالم مبنية على التمييز الديني بين من هو مؤمن، ومن هو غير مؤمن، و «أهل الكتاب».[13]

ثمة ظرف ضروري آخر هو أنه يتعين على الجماعة المعنية أن تصور نفسها كجماعة مضطهدة وأن الدين يعرض خياراً لانعتاقها. فمثلاً، فإن الموضوع المشترك الذي دأبت جماعة الإخوان المسلمين على ترديده هو أن المسلمين تعرضوا للاستعمار والاضطهاد على يد الغرب لأنهم لم يكونوا مخلصين للتعاليم الإسلامية. لذلك، فإن الخروج من مأزقهم يتطلب العودة إلى التعاليم الصارمة للإسلام. والله نفسه سيزيح عنهم أي مظالم متصورة.

ورغم أن الظروف التي طرحناها ضرورية لاستخدام الدين كسلاح، فإن وجودها لا يكفي؛ فهي لا تضمن حدوث ذلك. وإنما تخلق الاحتمالية فحسب. ويحدث الاستخدام الفعلي للدين كسلاح كنتيجة لقرار بشري أو سلسلة من القرارات، والأحكام لا تحددها الظروف أو المعتقدات سلفاً. ويصبح الدين سلاح حرب عندما يُستخدم كمبرر لعنف مسلح. وقد يكون هذا الاستخدام مقصوداً صراحة من جانب كبار رجال دين أو ربما يكون تفسيراً أدلى به آخرون

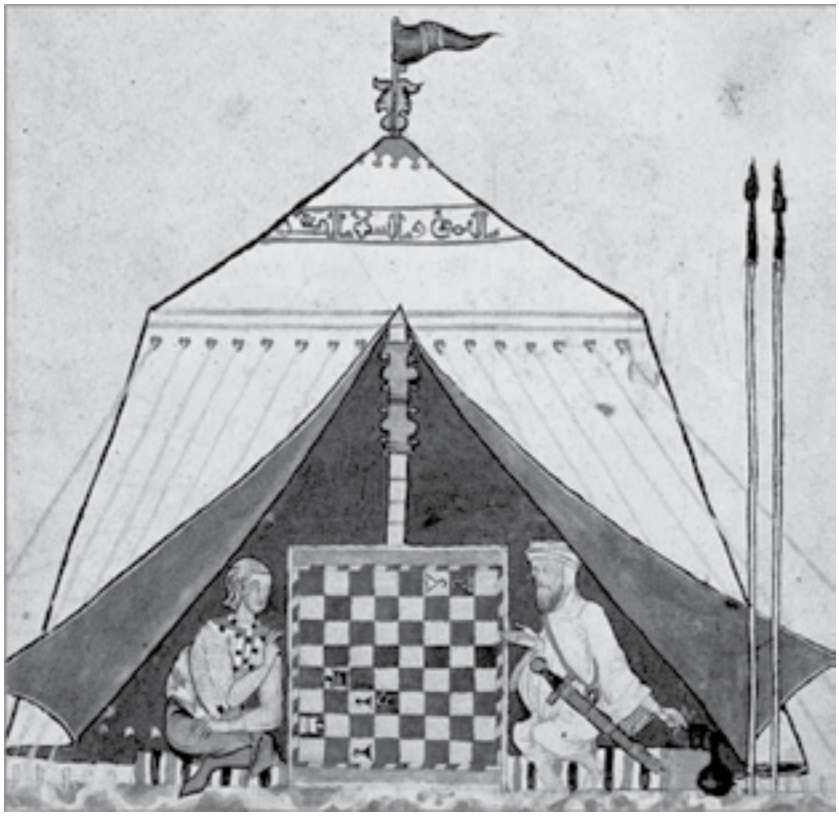

نموذج منير مصغر من كتاب ألعاب الشطرنج، والنرد واللوحة بتكليف من ألفونسو إكس إلسابيو من كاستيل. القرن الثالث عشر. المكتبة الوطنية، مدريد.

لبعض الآيات الدينية أو أحاديث كبار رجال دين. وعلى أي حال، يصبح الدين سلاحا لأنه يخدم كحافز قوي على أعمال العنف.

إن الاتجاهين الرئيسيين اللذين يسهلان استخدام الدين كسلاح هما الأصولية والتبشيرية. فالأصولية تروج لمرجعية صارمة تكثف الخلافات بين المؤمنين وبين "الآخر". كما تروج لعقلية حرفية وجامدة تؤمن بصدق بأن "الحقيقة" يمكن اغتنامها وفهمها على أنها حقيقة موضوعية.[14] وتسعى التبشيرية بنشاط إلى تغيير «الآخر» عبر التحويل. وفي بعض الحالات، قد تؤدي الحماسة المفرطة إلى تحويل الآخر، إلى عرض بديلين مهزومين إما التحول أو الموت. ولقرون عديدة تنشط هاتان القوتان في العلاقة المركبة بين العالمين الإسلامي والمسيحي.

بعد "عصر التنوير" في الغرب، حل مفهوم "الديمقراطية العلمانية" بدرجة كبيرة محل "الدعوة النصرانية". لذلك، فإن النزاع اليوم بين الأديان تحول إلى صراع بين الديمقراطية والسلطة الدينية الإسلامية. وفي الغرب، ليس التبشير الشرس بالديمقراطية العلمانية جزءاً فقط من الأجندات الوطنية، ولكنه أيضاً جزء من أجندات الكثير من المنظمات غير الحكومية التي تروج «لحقوق الإنسان». وبدلاً من أن يُنظر إليها كصاحبة موقف حيادي دينياً، فإن الترويج النشط للديمقراطية «وحقوق الإنسان» المجردة - العقلية العلمانية منفصلة عن الأخلاق ذات الأساس الديني - هو شيء تعتبره مجتمعات إسلامية كثيرة عقيدة غريبة تتنافس مباشرة مع القيم الأخلاقية والدينية للإسلام. وأصبحت الديمقراطية والترويج لحقوق الإنسانية العلمانية بالنسبة لكثير من المسلمين هي "الآخر" المعادي للدين.

تنشغل الأديان التي تعتبر كتابات معينة تنزيلاً من عند الله بتفسير هذه النصوص. وبحكم التعريف، فإن هذه النصوص الدينية صالحة لكل زمان وسلطتها أبدية. والتفسير قابل للبرهان العقلي، وحقق علماء الأديان العظيمة الثلاثة شهرتهم، عبر التاريخ، على أساس تفسيرات معينة لتراثهم الديني. وتم ربط التطورات الثقافية وتاريخ الأفكار ربطاً وثيقاً بتفسير النصوص الدينية. وتفترض إحدى

مدارس التفسير أن النصوص الدينية منزلة من عند الله. وفي الحالات القصوى يُعتبر النص المقدس كلمة الله نفسه.[15] أما مدرسة التفسير الثانية فتعتقد أنه رغم أن النصوص الدينية ربما كانت إلهاماً من السماء، فإنها ليست نهائية أو معصومة وإنما هي قابلة للتفسير، والتطوير، ووضعها في سياقها الصحيح.[16]

ويمثل هذان الموقفان إطار عمل تأويلياً أو تفسيرياً. فكلاهما ينطوي على منطق داخلي، حتى يكون القبول بهما مسألة إيمانية. على هذا النحو، فإنهما غير خاضعين للتأكيد أو النفي العقلاني. ومع ذلك، فمتى تم قبول أي منهما كإطار عمل ذهني، يمكن عندئذ تطبيق العقل والمنطق في تفسيره وشرحه. إن المدرسة الفكرية المتطرفة قادرة على جعل التفسير الديني قابلاً للتحول إلى "سلاح".

الأصولية والحرب

إن أول هذين الموقفين، الذي يقول بأن النصوص الدينية غير قابلة للتغيير، يُعرف عادة بالموقف الأصولي لأنه يبني آراءه على ما يعتبره النسخة الأصلية، الصريحة للنصوص المقدسة. والتفسيرات الأصولية موجودة في جميع الأديان التوحيدية الثلاثة. فنصوص الديانة اليهودية، لا سيما التوراة والمزامير، وكذلك القرآن الكريم تحتوي على الكثير من المقاطع التي يأمر فيها الله باستخدام العنف ضد غير المؤمنين. وكثير من المزامير تستدعي صراحة غضب الله على الأعداء.[17] بينما تستخدم مقاطع أخرى صوراً تحث على القتال.[18] ويقبل دعاة التفسير الأصولي هذه النصوص كما هي ويضعون أنفسهم كذلك في صدام مع جميع المواقف المتنافسة الأخرى، سواء من داخل ديانتهم أو من خارجها.

الصورة مجاملة من المؤلف

المؤلف يحيي القرويين المسلمين في أفغانستان.

وينكر دعاة الأصولية إمكانية الخلاص لأولئك الذين لا يقبلون بتفسيرهم لدينهم؛ وفي أسوأ الأحوال ربما يروجون للعنف ضد "الآخر". لقد أتاحت الأصولية تبريراً فكرياً للحروب الظالمة مبنياً على الدين. فمثلاً، تم تعريف المدرستين السلفية والوهابية لتفسير القرآن الكريم على أنهما المصدران العقائديان للدعوة الحديثة للجهاد "الخارجي" واستعادة الدولة الدينية الإسلامية. في حين تدعو الأصولية اليهودية إلى استعادة معبد القدس وأرض "إسرائيل الكبرى" على أساس ديني. ولا يمكن التوفيق بين هذين الموقفين منطقياً، وإذا لم تتم مراجعتهما، فإنهما سيجعلان أي حل وسط تدعو له الحاجة لتحقيق السلام في فلسطين أمراً مستحيلاً. وللأسف، فإن دعاة هذين الموقفين نشطون حالياً على الساحة ويتمتعون بالنفوذ في الشرق الأوسط.

وللمسيحية سلالاتها الأصولية أيضاً، رغم أن النصوص المسيحية ذاتها - الأناجيل وكتب العهد الجديد - خالية بصورة لافتة من ظواهر العنف العالمية. فالواقع، أن المسيح نفسه دعا إلى شكل متطرف من السلمية وأصر على أن "مملكتي ليست هذا العالم".[19] ومع ذلك، فإن معظم المسيحيين يقبلون النصوص الدينية اليهودية، التي يسمونها «العهد القديم» على أنها - وإن كانت غير كاملة - تنزيل صحيح من عند الله. كما استخدم المسيحيون هذه النصوص لتبرير العنف باسم الدين.[20] ورغم هذه النزعة، فإن المسيحية كانت عند نشأتها، ولنحو أربعمائة عام، ديانة سلمية تمقت كل ألوان العنف باعتبارها خطيئة. وفضّل أتباعها الاستشهاد على أكثر الحقوق الانسانية للفرد أو الجماعة في الدفاع عن النفس.

وقد أرغم المسيحيون فقط مع مجيء المسيحية باعتبارها الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، على التصارع مع مفهوم أن العنف الجماعي في شكل حرب، ربما، وفي بعض الحالات، يمكن تبريره أخلاقياً. وكان أوغستين هيبو المناصر الكلاسيكي لفكرة "الحرب العادلة".[21] وقام توماس أكواينياس فيما بعد بتطوير هذه الفكرة، وتمثل مؤلفاته، حتى اليوم، التبرير المسيحي الرائد للحرب.[22] كما تخدم فكرته عن الحرب العادلة كأساس للنظرية الإنسانية الغربية الحديثة للحرب. ورغم وجود قيود نظرية حادة جداً على كل من تبرير الحرب والسلوك الأخلاقي في الحرب، فإن الممارسة المسيحية لم تتبع هذه النظرية. لقد شن المسيحيون حروباً خبيثة وحروب إبادة جماعية ضد أعدائهم من دين آخر، والمسيحيين غير الملتزمين، بل وضد مسيحيين من نفس الطائفة. لقد خضّبت المسيحية المتعصبة مسار التاريخ البشري في الغرب بالدماء.

أصبحت الديمقراطية والترويج للحقوق العلمانية للإنسان بالنسبة للكثير من المسلمين معادية للدين "الآخر".

التعصب الديني

كان التعصب الديني، تاريخياً، أكثر انتشاراً من التسامح الديني. غير أن دين الأغلبية لم يقم دائماً باضطهاد أو قتل الأقلية. فقد ترك أفراد وجماعات الأقلية في حالهم تقريباً طالما ظل عددهم قليلاً وغير بارز. وفي بعض الحالات، تم قبول أعضاء هذه الجماعات المتميزين بمهارات نادرة ومفيدة بل وترقيتهم داخل مجتمع الأغلبية طالما أنهم وفروا الخدمات اللازمة وتمسكوا بالأعراف الاجتماعية السائدة - بما في ذلك التركيبات الدينية الاجتماعية السائدة.[23] ورغم أن معظم الديمقراطيات الغربية تأخذ مفهوم التسامح الديني على أنه دليل إيمان، فإن هذا الموقف جديد نسبياً على المسرح العالمي (إذا ما قارناه بنسيج التاريخ الإنساني). لقد أصرت معظم المجتمعات على ممارسة دين الأغلبية، وظل التسامح مع ديانات أخرى قاصراً على حالات معزولة وقلة من الغرباء.[24]

ففي العصور الإغريقية، ومن بينها - ربما على نحو مثير للدهشة - الامبراطورية الرومانية، كان هناك تسامح مع الكثير من الديانات، رغم أن السلطات المدنية عادة ما فرضت الملة الرسمية للإمبراطور أو الملك على كافة المواطنين مع منح استثناءات قليلة. والواقع، أن رفض عبادة الملك بات سبباً رئيسياً للاستشهاد بين اليهود والمسيحيين في العصر الإغريقي.

إن المفهوم الغربي العصري لحرية الضمير هو نتاج عصر التنوير ولم يزدهر إلا بعد أن وضعت اتفاقية سلام وستفاليا حداً للحروب الدينية الرهيبة في أوروبا.[25] إن حرية الضمير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعلمنة والدمقرطة التدريجية لأوروبا الغربية وأمريكا. ويكشف تاريخها ندرة وفتوة المفاهيم التي تنطوي عليها، ويفسر لماذا هي غير مقبولة بصورة عامة خارج الغرب بقدر ما يتخيل أو يتصور الغربيون.

ورغم حداثة حرية الضمير والتسامح الديني، فقد اعتنقهما جزء كبير من المجتمع الدولي تحت قيادة الغرب ووسائل الإعلام العالمية. ولا شك أن هذه المُثل تتناقض مع أفكار الاستبداد الديني. وعلينا أن ندرك هذه الحقيقة ونفهم أن الحكومة الدينية بديل صالح ومنطقي تماماً بالنسبة لأولئك الذين يقبلون بنظرة تجاه العالم تضفي أهمية كبرى على نظام ديني بعينه. والمجتمع الذي تم ترتيبه حول قيم دينية وأعراف ثقافية استبدادية غير قابل لاستيعاب التقدم في حرية الفكر والكلمة. ومع ذلك، فإن هذه العُسرة الثقافية للقيم الغربية لا تبرر استخدام الدين كسلاح في الحرب.

ومثلما يمكن ملاحظته من استعراضنا لبعض المواقف الدينية القائمة في إطار التقاليد التوحيدية، قد يوفر فهم ثقافي واسع للدين وسياقاته الاجتماعية المختلفة عدسة يمكن من خلالها تقييم وجود الدين وآثاره على بيئة عمليات ما. ولتحقيق ذلك فإنني أعرض التوصيات التالية:

اقبل حقيقة الدين. إن الدين ليس عقلانياً أو غير عقلاني؛ إنه فوق العقلاني - بعيداً عن متناول العقل الصارم. ومع ذلك، متى تم قبول مبادئ ديانة معينة، فهي عادة ما تكون قابلة للفهم العقلاني، ويمكن مناقشة تعاليمها بصورة عقلانية.

سيستمر الدين في بسط نفوذ عميق على الأعمال الفردية والجماعية. لذلك، يتعين الاعتراف بأهمية الدين حتى وإن لم يُختزل بالتفسير العقلاني وحده. وكما

... ديناً معيناً هو أمر واقع، حتى لو لم يكن دينك.

عبّر رودولف أوتو عن ذلك، "فإن موضوع الرهبة أو المهابة الدينية، لا يمكن تحديد مفهومه بالكامل: إنه لاعقلاني، مثله مثل جمال التأليف الموسيقي، الذي يستعصي على التحليل المفاهيمي الكامل».[26] إن القبول بأن الدين له تصنيفه الخاص به الذي ينفصل عن العلة المنطقية أمر بالغ الأهمية لفهم أي وضع يلعب فيه الدين دوراً. وقد يكون مثل هذا القبول صعباً بالنسبة لأولئك المعتادين على التعامل مع وقائع سياسية ملموسة أو الواقعية السياسية. ومع ذلك، فإن واقع وأهمية العامل الديني في العمل السياسي لم يعترف به محلل سياسي على نحو اعتراف ميكيافيللي.[27]

ويتعين منح جميع الأديان الشرعية، إن لم يكن من وجهة نظر فلسفية، فليكن على الأقل من منظور تجريبي. وبالنسبة للمتدينين، فإن منح الشرعية لدين آخر - دين "الآخر" - قد يكون مهمة صعبة من الناحتين العاطفية والفكرية. وبالنسبة لغير المؤمنين، أو أولئك الذين لا يمثل الدين بالنسبة لهم جزءاً مهماً من تكوينهم النفسي أو العاطفي، فإن الاعتراف بواقع وأهمية المعتقد الديني قد ينطوي حتى على قدر أكبر من التحدي. وهذه تذكرة

مهمة للمخططين: حتى لو أنك لا تقبل تعاليم دين معين، فإنها حقيقية بالنسبة للمؤمنين بها. معنى هذا أن ديناً معيناً هو أمر واقع، حتى لو لم يكن دينك.

اعترف بأن الدين يتعامل مع المطلق. هذه هي خاصته المستعصية. فحقيقة أن الكثير من الأديان تُجزم بمعرفتها بالحقيقة المطلقة تجعلها مستعصية أكثر على التفاعلات التي تتطلب الاعتدال والوسطية خارج منظومة معتقداتها. فالدبلوماسية تتطلب أن يلتقي أولئك الذين يتمسكون بمواقف متضاربة في مكان ما بالوسط. وهذا يتطلب مرونة ورغبة في التوافق. ومع ذلك، فإن الكثير من الشخصيات الدينية تحظى بالتبجيل بسبب آرائها الدينية المتعصبة والمتصلبة. والواقع، فإن الكثيرين الذين يعتبرهم أتباعهم قديسين ينظر إليهم خصومهم على أنهم متعصبون. وعلينا أن ندرك إلى أي مدى قد يكون المشاركون في تفاعل ما راغبين في التوافق. وإلا فإن الكثير من الوقت والجهد يمكن أن يتبدد في مسعى عقيم لتحقيق هدف لا تقبل به الأطراف الضالعة الأخرى.

افهم أن للدين جوانب شخصية واجتماعية في آن واحد. إن الدين مفهوم معقد. فهو ينطوي على جوانب شخصية واجتماعية معا. وقد تكون الجوانب الشخصية مهمة عندما تشكل أفكار وأعمال اللاعبين الرئيسيين على ساحة سياسية أو ثقافية. وقد يمارس أولئك الأفراد قدراً كبيراً من النفوذ على أتباعهم. بل إن الجوانب الاجتماعية أكثر أهمية لأنها قد تكون مؤثرة في التحريض على أعمال جماعية. وفي كثير من الأماكن والأحوال، كثيراً ما تكون الهوية الدينية أهم مصدر للهوية الجماعية.

افهم أن الدين يتألف من معتقدات دينية وأعراف ثقافية. إن كلمة دين تشمل طائفة واسعة من المعاني وتشير إلى ما هو أكثر من المفاهيم الدينية. كما توفر قواعد للسلوك الفردي والجماعي، في منظومة للقيم «الأخلاقية» الظاهرية. وينطوي الكثير من الأديان على مبادئ تملي طبيعة السلوك، والملبس، والمأكل، وما شابه. ومثل هذه المبادئ يمكن أن تحمل قوة القانون الأخلاقي في مجتمع أصولي، يقوم على حكم الدين. وتطبق بعض التفسيرات الدينية نفس وسائل التنفيذ الصارمة التي تطبق بها هذه المبادئ على التعاليم الدينية. وقد تعترف تفسيرات أخرى في نطاق المنظومة الدينية ذاتها بنفس الجوانب الجمالية مثل الموروثات الثقافية التي لا تحمل نفس قوة المعتقدات الدينية.

وبالنظر إلى أن معظم الناس لا يدققون كثيراً في تأمل تفاعلاتهم اليومية واستخدامهم للغة، فإنهم دائماً لا يميزون بدرجة كافية بين المزيج المعقد من التقاليد الدينية الثقافية، والخصوبة والغموض الكامنين في اللغة مما يؤدي إلى تفاقم المشكلة. فعندما تمتزج المبادئ المستوحاة دينياً بالمواقف أو العادات الثقافية، قد توصف النتيجة بأنها تركيبة ثقافية دينية معقدة.

ويمكن للمرء أن يرى أثر العادات الثقافية في مختلف الممارسات المتعلقة بحجاب المرأة. فالقرآن الكريم يفرض على النساء الاحتشام في ملبسهن.[28] وتم تفسير هذا الفرض تفسيرات مختلفة في العالم الإسلامي على أنه يعني تغطية الجسم بأكمله، مثل البرقع البشتوني، أو غطاء الرأس البسيط، مثل ما ترتديه الكثير من النساء الإندونيسيات.

لاحظ أن الدين يوجد في السياق مع أيديولوجيات أخرى. جاء على الغرب وقت كانت فيه السياسة والدين شيئاً واحداً. وفي كثير من عالم اليوم، لا يزال هذا التعريف مهماً. وحتى في الغرب، فإن الدين لا يتواجد عادة في عزلة عن الوسائط الفكرية الأخرى، سياسية كانت أو دينية. وعادة ما يتواجد الدين في سياق كثيراً ما يشكل ويؤثر على اهتمامات التقاليد الدينية. وحين تكون ديانة ما، أو مذهب في ديانة ما، ضمن الأقلية، فإن الأمر قد يتطلب موقفاً دفاعياً وأحياناً متشدداً تجاه ديانة الأغلبية. وعلى العكس من ذلك، فإن أعضاء دين الأغلبية قد يقررون التنكيل بكل

المعارضة واضطهاد ديانات الأقليات الأخرى. ويحدث تنكيل الأغلبية هذا أيضاً في سياق مصادمات بين وسائط الفكر الغربي، مثل تلك النابعة عن تقاليد دينية، ووثنية أنغلو سكسونية، ومثالية ديمقراطية، وإنسانية علمانية، وبين أشكال الاستبداد السياسي (مثل الماركسية).

استخدام الدين كأداة. وكما يصح الأمر بالنسبة لجميع التركيبات الثقافية، فإن الدين قد يخدم أغراضاً أخرى غير وظيفته الروحية المعلنة. لذلك، فإنه قد يتقلد أدواراً سياسية، وثقافية، واجتماعية، وغيرها. ويعترف القادة من كافة المشارب بقوة الدين ويوظفونه لأغراضهم الخاصة.

البعد الأخلاقي. إن لكل من استخدام الدين كسلاح، والدفاع ضد استخدام الدين كسلاح، تداعيات أخلاقية عويصة. فمثلما يُعد استخدام المعرفة الطبية أو النفسية لتحقيق ميزة شخصية أو جماعية محفوفاً بمخاطر أخلاقية، فكذلك استخدام الدين. وكمثال على ذلك، هل يستطيع قائد ما أن يستخدم رجل الدين التابع له في محاولة التأثير على كبار رجال الدين المحليين على أساس مكانته الدينية؟ مثال آخر قد ننظر فيه، ما هي بعض المزايا أو المساوئ المحتملة لاستخدام التعاليم الدينية كأساس لعمل مدني أو عسكري محتمل؟ ليس لهذه الأسئلة وغيرها إجابات قاطعة. فهي قابلة للتفسير المعنوي والأخلاقي. وفي سياق أوسع، فإن هذه الأسئلة تتعلق بالمعضلة الأخلاقية المزمنة وهي إن كانت الغاية تبرر الوسيلة، وإن صح ذلك، تحت أي ظروف؟

التفاعل الإنساني الجماعي

وباختصار، فإن الدين كان ولا يزال عاملاً مهماً في التفاعل الإنساني الفردي والجماعي. ورغم المحاولات الغربية "لفصل الرب عن قيصر"، فإن الدين يرفض أن يهبط إلى درجة عزله عن الشؤون العالمية. ويرقى الفشل في التعامل مع وجوده، ونفوذه، وآثاره إلى حد نكران الواقع. ومن المفارقات، أن المعتقدات الدينية - التي تمثل أكثر التركيبات المبهمة والتجاوزية للعقل البشري - تنطوي على عواقب عملية وأحياناً فتاكة بالنسبة للأفراد والمجتمعات. وبالنسبة لصانع السياسة، والضابط العسكري، وممارس التصميم، فإن تجاهل الدين وكافة آثاره المعقدة ليس خياراً بكل بساطة. **ميليتاري ريفيو**

ملاحظات هامشية

1. يشوع 6: 16-17، كما ورد في الإنجيل: النسخة الإنجليزية اليوم (نيويورك: جمعية الإنجيل الأمريكية، 1993)، 187.

2. القرآن الكريم، ترجمة إن. جيه. داوود، الطبعة السادسة (لندن: بنغوين، 1997)، 146.

3. "يمكن التصميم القادة من تصور البيئة العملياتية. ويمكنهم تصور البيئة ليس في نطاق وجود أنظمة محايدة تابعة للعدو، أو الخصم، أو الأصدقاء، طوال كافة ألوان النزاع وحسب، وإنما في سياق البيئة السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والمعلوماتية، والبنية التحتية، والمادية والوقت (الكتيب الميداني 3 FM 0-)". جاك كيم، التصميم: أدوات المهنة (فورت ليفينوورث، كانزاس: كلية قيادة الجيش والأركان العامة، 2009)، 12.

4. "شعر اليهود في المنفى بقسوة العالم من حولهم؛ وساعدهم هذا الإحساس بالوجود في الشعور بأن رباً خيّراً يحتويهم". كارين آرمسترونغ، تاريخ الرب: سعي اليهودية، والمسيحية والإسلام على مدى 4000 عام (نيويورك: بالانتاين، 1993)، 76.

5. "دفع اليّ كل سلطان في السماء وعلى الارض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به. وها انا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر". إنجيل متى 19:28-20.

6. «فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم...»
القرآن الكريم - سورة الشوري، الآية 15.

7. عرّف رودولف أوتو القدرة الإنسانية على الخشية من الكائنات فوق العقلانية بأنه شعور "خشوعي"، وكائن هذه الخشية بأنه الغموض المهيب، الذي يؤدي إلى فكرة أن الإله هو «الآخر الكلي». رودولف أوتو، فكرة المقدس (مطبعة جامعة أكسفورد، 1923)، 25-30.

8. "حقيقة، هناك محل للجدل بأن الإنسان العاقل هو أيضاً الإنسان المتدين. بدأ الرجال والنساء يعبدون آلهة حالما أدركوا بشريتهم؛ وابتكروا ديانات في نفس الوقت الذي أبدعوا فيه أعمالاً فنية». آرمسترونغ، التاسع عشر.

9. سان أوغستين من هيبو، الاعترافات، ترجمة هنري تشادويك (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2006)، 3.

10. دشنت حكومة الثورة الفرنسية حكم "العقل" ونهاية المسيحية الرسمية في الجمهورية الجديدة. وفيما بعد أعلن نيتشه موت الإله وبزوغ فجر عصر السوبرمان. ووصف ماركس الدين بأنه "أفيون الشعوب". وفي القرن العشرين، عارضت الفلسفة العلمية الوضعية والشيوعية الدين؛ وتجاهلت الرأسمالية أو

تغاضت عن الشواغل الدينية. وحاول فلاسفة مثل سارتر بناء مبادئ أخلاقية لا تعتمد على الله. ورغم كل هذه الاتجاهات، ظل الدين على قيد الحياة ويبشر بأنه سيكون قوة دافعة في القرن الحادي والعشرين. لمعالجة مختصرة للمواجهة بين الدين والحداثة، أنظر آرمسترونغ، صفحة 365-371.

11. "أصبح اسم داروين كلمة مرادفة للإلحاد في الدوائر الأصولية، ومع ذلك فإن أصل الأنواع لم يكن الغرض منه أن يكون هجوماً على الدين، وإنما توضيحاً رصيناً لنظرية علمية». آرمسترونغ، 94.

12. "قبل أن يسموا أنفسهم ليونيز، أو قشتاليين، أو أراغونيين، سمى أولئك الذين حاربوا البربر وعاشوا واختلطوا مع اليهود أنفسهم مسيحيين". أميريكو كاسترو، الواقع التاريخي لأسبانيا (مكسيكو سيتي، المكسيك: افتتاحية بوريا، 1982)، 25.

13. "نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل"(3) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان". القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآيتان 3 و 4. «إن الدين عند الله الإسلام ..». القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 19». ... ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون..... ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين». القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآيات من 110-115.

14. "حوّل الأصوليون اليهود والمسلمون القوافي والأمثال والأناشيد إلى شعارات عملية تستهدف تحقيق نتيجة عملية. وحرّف الأصوليون البروتستنت الأسطورة بطريقة مختلفة. فقد حولوا الأساطير المسيحية إلى حقائق علمية، وخلقوا هجيناً لم يكن علماً جيداً أو ديناً حسناً. وتصادم ذلك مع التقاليد الروحانية برمتها وانطوى على ضغط كبير، بالنظر إلى أن الحقيقة الدينية ليست عقلانية بطبيعتها ولا يمكن إثباتها علميا». آرمسترونغ، 355.

15. في القرآن الكريم، يقول الله تبارك وتعالى: "إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون. وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم". سورة الزخرف الآيتان 3 و4.

« إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ". سورة البقرة الآية 174.

16. «منذ أواخر القرن الثامن عشر، طبّق العلماء الألمان التقنيات الجديدة للتحليل الأدبي، وعلم الآثار، واللغويات المقارنة على الإنجيل، وأخضعوها لمنهجية تجريبية علمية». آرمسترونغ، 91.

17. **"لأنه ليس في أفواههم صدق. جوفهم هوة. حلقهم قبر مفتوح. ألسنتهم صقلوها دنهم يا الله ليسقطوا من مؤامراتهم. بكثرة ذنوبهم طوح بهم، لأنهم تمردوا عليك". المزمور 5:9-10.**

18. **«أرعد الرب من السماوات، والعلي أعطى صوته، برداً وجمر نار. أرسل سهامه فشتتهم، وبروقاً كثيرة فأزعجهم". المزمور 18:13-14.**

19. «سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما انا فأقول لكم احبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم احسنوا الى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات». إنجيل متى 5: 43-45.

20. هذا صحيح حتى يومنا هذا، كما بيّن بريستون جونز وكودي بيكمان في كتابهما اختفاء الرب في المعركة: نحو انعكاس المسيحية على المعركة (لانهام، ميريلاند: مطبعة الجامعة الأمريكية، 2009).

21. حتى مع تسليمه بالضرورة الاجتماعية "للحرب العادلة"، فإن أوغستين يرثي ما تنطوي عليه من عنف. "لأن المخالفات التي يرتكبها الطرف المعارض هي التي تدفع الحكماء من الرجال إلى شن حروب عادلة؛ وحتى وإن لم تدفع هذه المخالفات إلى الحرب، فإنها تظل مسألة محزنة للإنسان لأنها مخالفات من صنع الإنسان. فليعترف إذن كل إنسان، يفكر بألم في هذه الشرور الكبرى، البالغة الفظاعة، والبالغة الشراسة بأن هذه تعاسة". أوغستين من هيبو، مدينة الله ضد الوثنيين، 617 18-.

22. "باستطاعة المسيحيين أن يستخدموا العنف عندما يكون من واجبهم أن يفعلوا ذلك؛ بمعنى آخر، عندما يكونون من الجنود (أو رجال الشرطة). ويستجيب مثل هؤلاء المسيحيين لعنف الأعداء الذين يهددون السلام والنظام - ليس على نحو سلبي، ولكن بالقوة ....يقاتل المسيحيون في الجيش ويصلون من أجل النصر لأنهم تشكلوا بفضيلة المحبة المثالية. فالمحبة هي الفضيلة الحاكمة في الحياة الأخلاقية". أليكزاندر إف. سي. ويبستر وداريل كول، فضيلة الحرب: إصلاح التقاليد المسيحية الكلاسيكية شرقاً وغرباً (سالزبوري، إم إس: مطبعة ريجينا أورثوذوكس، 2004)، 150.

23. قمت بتبسيط مفاهيم "معقدة" ومجموعة من مثل هذه التعقيدات المستخدمة في النفسية التحليلية ليونغ وطبقتها في سياق اجتماعي أكبر. "إن بعض التعقيدات الجماعية، التي تدور حول قضايا الجنس، أو الدين، أو المال، أو السلطة تؤثر على كل شخص تقريباً بدرجة ما ويمكن أن تؤدي إلى تصريف شرس للطاقة، بل إلى الحرب، إذا ما استثيرت بقوة كافية". موراي شتاين، خريطة يونغ للروح: مقدمة (شيكاغو: أوبن كورت، 1998)، 76.

24. "...حتى ثمانينات القرن السادس عشر، لم يتمتع قسم كبير من أوروبا، وإن كان قد تميز بالتنوع الديني، بحرية دينية حقيقية، مع ذلك، على النحو الذي نفهمه اليوم. فانتماء المسيحي إلى الطائفة الخطأ يمكن أن يفضي به إلى الموت، وأحياناً إلى موت فظيع - فقد تم إحراق آلاف مؤلفة أحياء على الأوتاد، وكثيراً ما كان القائلون بتجديد العماد يُقتلون غرقاً لأنهم كانوا يؤمنون بالتعميد بالغمر في المياه، وهي وسيلة إعدام متعمدة ومروعة تثير السخرية". كريستوفر كاثروود، شن الحرب باسم الله (نيويورك: مطبعة سيتادل، 2007)، 119.

25. كاثروود، 127.

26. "...إن إدراج الحقيقة الدينية في اللغة تميل حتماً إلى التشديد على السمات العقلانية" لله. ومع أن الخطأ السالف الذكر هو بالتالي خطأ طبيعي، فإنه مع ذلك مضلل على نحو خطير. فالواقع حتى الآن أن هذه السمات "العقلانية" من استهلاك فكرة المعبود، توحي ببساطة، بأنها تستند إلى سمات غير عقلانية أو فوق العقلانية". رودولف أوتو ، فكرة المقدس، 2.

27. في مقالته الشهيرة حول القيادة السياسية، الأمير يعترف ميكيافيللي بنفوذ الأفكار الأخلاقية المستقاة من الدين، حتى وهو يطعن في جدواها في السياسة. وهو يكرس أيضاً قسماً كاملاً لما يصفه «بالإمارات الكنسية». أنظر نيكولو ميكيافيللي، الأمير (لندن: بنغوين، 1981)، 73-76.

28. "وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون". القرآن الكريم، سورة النور، الآية 31.

Dealing with Absolutes
Religion, the Operational Environment, and the Art of Design
Lieutenant Colonel Prisco R. Hernández, Ph.D., U.S. Army Reserve
Originally published in the English November-December 2010 Edition.